الرسالة الأولى: لبنان

بقلم: قيس عبد الله الجوعان

هذه هي الرسالة الأولى من سلسلة رسائل تأملية تُكتب بصيغة وجدانية تتأرجح بين البوح النثري والمناجاة الأخلاقية. هذه الرسائل لا تُصنَّف بوصفها شهادات توثيقية أو مقالات تحليلية، بل هي محاولات للكتابة من موقعٍ هشّ، حيث لا يكفي التاريخ، ولا تعالج اللغة الجرح، لكن لا بدّ من القول.

حول هذا النص:

- **الموقع ضمن المشروع** :يُعدّ هذا النص نموذجًا بنيويًا وأسلوبًا تعبيريًا للرسائل التي ستليه، كل واحدة منها تستدعي مأساة إنسانية مختلفة.
- **الأسلوب** :تعتمد اللغة على صفاء العربية المعاصرة، بنبرة متأملة تتجنّب المباشرة، وتميل إلى الإنصات العميق بدل الخطابة.
- **البنية** :يفتتح النص بمقطع تأملي يعمل كمفتاح وجداني، دون عنوان مستقل، كي لا يُفصل عن جسد النص. ثم تتوالى المقاطع بوحدة شعورية متصاعدة، تختمها نبرة هادئة لا تُغلق الدلالة.
- **الغرض** :لا يهدف النص إلى تقديم إجابة أو تحميل موقف، بل إلى الإنصات لما يُقال عادةً بين السطور، وإلى مساءلة موضع الغائب (العدالة، الإله، الضمير، إلخ) لا إنكار وجوده.

نص الرسالة

في هذا الوجع المتروك بين أنقاضنا، لا نملك إلا أن نُعيد تشكيل الإيمان من شظايا الأسئلة. ليس الغياب نفيًا دائمًا، ولا الصمت خيانة مطلقة. بل ربما تكون التجربة نفسها طريقًا إلى إدراكٍ آخر، لا يقوم على الجواب، بل على المجاهدة في السؤال نكتب لأننا لم نعد نعرف كيف نصمت. ونصمت لأننا لم نعد نُجيد الدعاء. وما بين الكتابة والدعاء، هناك مكانٌ لا تُقاس فيه العدالة، بل يُختبر فيه الصبر.

حين انهار الحي، لم نصرخ. جلسنا على الأنقاض، نعدّ الأسماء لا الجثث. لم يكن فينا من يسأل: لماذا؟ كان يكفينا أن نعرف من بقي حيًّا.

أكتب إليك، لا طلبًا لجواب، بل لأن لا أحد سواك بقي لنُخاطبه. كنتَ وعدًا في صلاتنا، ثم صرت غيابًا لا نعرف كيف نقرأه.

قلنا: لن تدوم. ظننا أن الجار لا يقتل جاره. ثم سقطت البيوت، وتغيّرت ملامح الشوارع، وصار كل اسم مشتبَهًا به. ما بدأ بسوء فهم، انتهى بخراب لا يبرَّر.

تعوّدنا ألا نسأل، لأن السؤال لا يُجيب. وإن أجاب، ندمنا على سماعه. ثم صرنا نخشى أن نعرف أكثر مما نستطيع أن نحتمل.

رجل مات قبل أن تُكمل أمه الدعاء له. بيت انطفأ، وفيه مصحف مفتوح على سورةٍ لم تُختم. الغياب لم يكن فجوة في الحضور، بل حضورًا مُبهمًا لا نُحسن تسميته.

طفلة خرجت من تحت الركام، لم تسأل عن أمها، ولم تبكِ. جلست وحدها، تمسح التراب عن عيني دميتها، كأنها تُعدّها للحياة التي لن تعود.

لم نعد نعرف من قتل من. كل طرفٍ له رواية، وكل رواية لها مبرّر. لكن الميت لا يروي شيئًا، ولا يُدافع عن اسمه. كأن الحقيقة ماتت قبله.

يُقال إنك لا تظلم. ونحن لا نُكذّب. لكننا لا نفهم كيف يصمت العدل حين يُذبح الأبرياء، ولا يعترض. إن كان هذا ابتلاءً، فهل الطفل يُبتلى بذنب لم يرتكبه؟ وإن كان عدلًا، فكيف يُوزن الألم؟

إن لم يكن سكوتك حيادًا، فقل لنا ما هو. لأننا لا نرى في هذا الصمت إلا خذلانًا نغفره بصعوبة.

لم نكفر بك، لكننا لم نعد نعرفك. لا نهرب منك، بل نبحث عنك في بقايانا. إن كنتَ معنا، فكن كما كنت يومًا: قريبًا يُدعى، لا غائبًا يُستدرك. وإن لم تكن، فعلى من نضع يدنا حين نخاف؟

وقد لا يكون الغياب إنكارًا، بل اختبارًا لما تبقّى فينا من نبضٍ حين يغيب كل شيء. وربما لا يُجاب الدعاء لأن الجواب أبطأ من ألمنا، وأصدق من انتظارنا. وليس من العدل أن نفهم، بل أن نثبت، ولو بكلمة لا تُقال.